سر خفى

وأشرق صباح جديد على مدينة الإسماعيلية إحدى مدن القناة المدافعة والتى تقع فى الخط الأول للمواجهة العسكرية، ومكاتب الموظفين فى هيئة قنال السويس تموج بالحركة والعمل، وكلٌّ يعرف دوره تماما فى هذه الظروف العصيبة التى يمر بها الوطن.. فالعدو يعربد على الضفة الشرقية للقنال، والقوات الفدائية تكيل لـه الضربات.. وفى برج المراقبة يقف المرشدون يوجهون السفن ويستقبلون منها المكالمات.. وبينهم أحمد عبدالخالق المرشد الجديد يعمل بجدٍّ وتفان كما هو معروف عنه لا تعوقه ساقه المبتورة ولا تقلل من عزيمته عصاه التى يتوكأ عليها.. حيث لم يعد صالحًا للعمل فوق السفن ينتقل من واحدة لأخرى، فاستعاض عن هذا بالتوجيه الأرضى لخبرته القوية فى هذا الميدان.. وقد وجد من زملائه حبًّا وتشجيعًا أعانه على إجادة عملـه.. وفى لحظة هدوء سكنت فيها حركة السفن جلس ساهمًا مفكرًا.. فلم يستطع العمل الجديد وحفاوة العاملين به أن يُنسوه واقعه أو يسدلوا ستارًا كثيفًا على ماضيه.. فواقعه يؤكد أنه إنسان معوق يجاملـه الآخرون ويعطفون عليه، وهو لا يزيد فى نظرهم عن رجل بساق صناعية لا يستطيع أن يتماسك لو ترك عصاه.. وماضيه المشرق حينما كان يقود السفن العملاقة فى قدرة تامة وعزم قوى لا يبالى بخطر أو يصده هول أو فزع.. كان لـه منصب ومكانه يحسده عليها الآخرون.. أما الآن فلم يبق لـه من ذلك شيء.. وتسيطر هذه الأفكار على نفسه فتحيل حياته اكتئابًا وظلمة.. تجعلـه أقرب إلى آلة تعمل ليس فيها أمل أو تفاؤل أو حياة.

وينتبه من غفوته الحزينة على صوت آمال تقترب منه طالبة نقل برقية إلى

إحدى السفن . . وكغريق نجا أعادته إلى هدوئه، فحدثها قليلاً وعادت إلى عملـها فى مكتب قريب منه مع منى . . وظلت عيناه متعلقتين بها حتى غابت .

وعاد إلى صمته ومشاعر قوية تهز وجد، إنه أنه يغالط الحقيقة ويتهرب منها ولا يستطيع أن يكذّب نفسه أو يقتل عواطفه . . إنه يحب آمال منذ أن رآها لأول مرة مع أخيه . . فقد ملكت عليه مشاعره وتغلغلت فى وجدانه . . حاول أن يبعد خيالـها عنه ولكن نظراتها كخيوط الحرير أحاطت به من كل جانب فلم يستطيع الإفلات منها . . وصارت هى نجواه فى الخلوة وسميرة فى الليل وأنيسة فى كل مكان يذهب إليه . . ترى ما الذى أوقعها فى طريقه؟ وأى حظ لعين يجعلـه يحب خطيبة أخيه الذى تفانى فى خدمته وكاد يفقد وعيه حزنًا عليه؟ إنه حب يائس محكوم عليه بالموت ولا يستطيع فى لحظة ما أن يرى النور .

ماذا يكون الوضع لو علم أخوه بهذه الحب؟ سيهدم كل القيم ويجحد مبادئ الأخوة وصلة الرحم التى تربط بينهما . . ومن الخير لـه إن لم يستطع أن يقتل هذا الحب أن يبعد نفسه . . فلا يتصور فى يوم من الأيام أن ينتزع حقًّا يتمسك به أخوه جابر . . ولكن نفسه الأمارة تتغلب عليه أحيانًا، وعواطفه الجياشة تسكت فيه جانب التفكير . . حقًّا إن كثيراً من تصرفات آمال نحوه تثير شكه فلا يدرى إن كان هذا عطفًا أو حبًا أو أدى أحدهما إلى الآخر . . وبين العطف والحب خيط دقيق لا يفصل بينهما تمامًا . . ويحس فى داخلـه بالتوتر حينما يحدثه جابر عن آمال وحبه لـها الذى ينسيه مرارة الحرمان، وتلـهفها لرؤيته حين يغيب عنها أو تتأخر إجازته . . فلماذا يتوتر؟ هل هى الغيرة؟ أم الحقد؟ . وكيف يغار من أخيه أو يحقد عليه . . وعن غير قصد ظاهر وبحجة العمل الكثير لا يمنحه الإجازة التى يطلبها . . والتى يقضيها مع آمال يستمتعان بينما يظل هو وحيداً يصطلى بنار العذاب؟!

وحينما يمنح الإجازة القصيرة يعيش أحمد فى قلق ويستدعيه أكثر من مرة . . ولا يعود إليه الـهدوء إلا بعد سفر جابر . . وآمال كما هى يرى فى عينيها نظرات تقربه وتبعده، وبسمات تغرى وتمنع، وبين القرب والبعد والإغراء والمنع يذوب قلبه وعقلـه ويسبح فى بحر عميق لا يستبين من خلالـه أثرًا لشاطئ على ضفافه .

وتحتدم هذه الأفكار فى رأسه وتتصارع وتكاد تقضى عليه وتمزق حياته . . وفجأة تبرز فى مخيلته منى . . تلك الفتاة الرقيقة الـهادئة التى تطيل النظر إليه كلما التقى بها وتتعمد أن تطيل معه الجلوس وبالقرب منها يشعر بالراحة . . بينما بجوار آمال يشعر بالعذاب . . فهل قدّر لـه أن يعيش فى هذا المعترك الذى يطحن قلبه وعواطفه؟ سيطلب من أخيه أن يتزوج آمال سريعًا حتى يستريح هو إلى اليأس ويراجع أفكاره وعواطفه مرة أخرى .

وتتكاثر الأعمال فى إحدى الأمسيات مما يجعل العاملين يتأخرون إلى ما بعد منتصف الليل وتطفأ الأنوار فوق الربوة ويخرج أحمد متوكئًا على عصاه تفترسه الأفكار التى تنهش راحته فى صحوه ونومه . . وعلى السلم الخارجى يرى آمال ومنى فى انتظاره . . وفى سرعة تعرض آمال عليه أن يوصلـها إلى المنزل فى هذا الوقت المتأخر الذى تخشى فيه السير بمفردها . . وتنظر منى إلى أحمد بابتسامة حزينة أودعت فيها كثيرًا من المعانى الصامتة لعلـها رسالة يستطيع أن يفهم منها شيئًا أو بعض شيء . . وابتعدت عنهما فى طريقها فلفها الظلام وتوارت بعيدًا .

وتسير آمال بجوار أحمد وتبدو متعبة منقبضة مترفقة فى خطاها لا تريد أن تسرع . . تشكو وحدتها وغياب جابر الطويل عنها . . كما أن أسرتها بدأت تملّ هذا الخطبة الطويلة التى يؤجلـها جابر يومًا بعد يوم ولا يريد أن ينهيها

بالزواج . . إنها تلتمس لـه العذر وتقدر ظروفه . . ولكن أسرتها لا تشاركه فى هذا الرأى . وكأن هذه الكلمات قد فكّت عقال لسانه فى هدوء الليل وظلمته . . وجاشت عواطفه وتدافعت كموجة عاتية تخطت العائق الذى يصدها .

ووقف أمامه فوضع يده على كتفها قائلاً : لماذا طلبت منّى أن أوصلك إلى المنزل مع قربه من هنا؟ . ولمَ تحدثينى هذا الحديث؟ فأنا لا أسمع منك إلا حديثًا عن جابر . . ولا من جَابر إلا حديثًا عنك . . لماذا لا تحدثينى عن نفسى؟ ألا تشعرين بى . . ألم تلاحظى شعورى نحوك أبدًا فى نظرة عينى أو رعشة أطرافى أو تعثر حديثى . . إننى أحبك يا آمال منذ أول يوم رأيتك فيه . . لم يستطع حب جابر أن يقف حائلاً بين قلبى وبينك . . فليس الحب شيئًا نملكه نستبقيه أو نبعده متى نريد . . ولست ميراثًا لجابر لا ينازعه أحد فيه ما دام لم يتزوجك بعد . . إننى ألوم نفسى وأعنَفها وأقسو عليها . . ولكن متى كان اللوم وسيلة للـهروب من هذه النار التى تكوينى؟ قال أحمد هذا ثم أمسك يدها فى قوة لتكون تعبيراً عن حبه . .

نظرت إليه آمال طويلاً ثم خفضت رأسها إلى الأرض ورعشة خفيفة تسرى فى جسدها كلـه ، والكلمات المتقطعة تخرج من بين شفتيها كأنها آتية من مكان بعيد تحمل فى معانيها ألوانا من التوتر والحيرة .

نعم يا أحمد أحسست بك فى بعض الأحيان . . وكنت دائمًا أكذّب نفسى وأنكر ما ألاحظه . . أحسست بك قبل أن تصاب . . وأحسست أكثر بعد ذلك . . ولم يستطع الغشاء الواهى الذى تصنعه أن يدارى حقيقة شعورك . . تبينته فى كل خطوة أو هسمة منك . . ولكن جابراً يقف حائلاً بينى وبينك . .

وقد تواعدنا قبلك على الزواج، وتربطنى به قصة حب يعلق عليه أكبر الآمال . . فكيف أتخلى عنه ؟ ولصالح مَن أتخلى؟ لأخيه؟ . . إنها قضية شائكة لا تستطيع إنسانة ضعيفة مثلى أن تجد لـها حلاً . . لقد ألقيتنى فى بحر تتلاطم أمواجه وأنا غريقة فيه لا أتمكن من الخلاص منه أو أجد مَن يأخذ بيدى .

لست قاسية يا أحمد، وليست القسوة من طبيعتى، فأنا إنسانة لى قلب يشعر ويتألم، ولا أنكر أننى انجذبت نحوك فى وقت أو فى آخر . . ربما لأنك شقيق جابر أو لكثرة لقائى بك وانفرادى معك .

وصرخ أحمد : أو تعاطفتِ معى لعاهتى التى أصبتُ بها فصرتُ عاجزًا .

فقاطعته آمال بسرعة : لا . . أبدًا . . ليست هذه هى الحقيقة . . فالذى يحب لا يصدّه شيء حتى لو كان هذا الشيء كما تظنه أنت . . فما بك شيء يسير أصيب به الألوف من ضحايا الحرب ولا يجعلك تفقد الأمل فى الحياة أو تحطّ من قدر نفسك وتنظر إلى الدنيا بمنظار أسود وعيون باكية .

إنك مازلت شابًّا قويًّا تعطى لبلدك وعملك ما كنت تعطيه من قبل، ولم ينقص منك شيء . . وجميع زملائك يشهدون لك بالقدرة والكفاءة . . فلماذا تحبس نفسك فى هذا القمقم الضيق . . قمقم العزلة والاكتئاب؟!

ألق هذه العصا التى تُشعرك بالعجز وبأنك دون الناس، واستقبل الحياة بنظرة جديدةَ وبسمة عريضة، وسأكون مع جابر بجوارك فى كل شيء .

إن منى تحبك حبًّا كبيراً وأنت لا تحسّ بها . . وهى تحبك لذاتك . . وفيها من الصفات الجميلة ما يؤهلـها لك . وكثير من الناس يقولون إننا متشابهان إلى حد كبير .

وابتسمت وهى تقول : أليس كذلك؟ فلماذا لا تبادلـها مشاعرها نحوك

وتقربها منك أكثر؟ إن الطريق الذى نسير فيه معًا طريق شائك . . نهايته الدمار للجميع . . وسكتت تلتقط أنفاسها كأنما ألقت عن كاهلـها عبئًا ثقيلاً يؤرقها وتنوء بحملـه .

نظر إليها أحمد طويلاً وما زال مسكًا بيدها وقال : ولكننى أحبك ولم أستطع انتزاع هذا الحب من قلبى ولن أقدر عليه، ولم أفكر فى منى أكثر من كونها زميلة فى العمل، وربما كانت تحبنى أيضًا من باب العطف والإشفاق كما تنظرين إلّى الآن .

وغلبته نوبة الانفعال المتمرد . . فترك يدها وهو يقول : ما أتعسنى فى هذه الحياة . . ألستُ أعيش على هامشها المهمل كطائر جريح يفسحون لـه الطريق ولا يريدون الإجهاز عليه حتى تحين منيته فيتوارى عن الأبصار؟ . الأفضل لمثلى أن يخلى الطريق للأقوياء الأصحاء ولا يقف حجر عثرة فى سبيل الآخرين .

وردت آمال فى دفعة قوية : إنك تغالط نفسك . . تريد أن تهرب من الحياة ولا تواجهها بعزيمة صلبة تجعل الصعب يلين أمامك، بل تسكب على روحك ألوانًا من السواد . . تغلق أمامك منافذ الأمل . . وأنا واثقة أن منى تحبك لشخصك لا لعاهتك . . وأنت تعلم ذلك، فلا تغالطنى أو تخدع نفسك وتبعدها عن الحقيقة .

ولا أنكر يا أحمد . . اننى أعجبت بك ولم أدع هذا الإعجاب يتطور ويتجاوز حدوده . . وعاندت قلبى معك كما عاندته فى أمور كثيرة من قبل، ووجدت فى هذا العناد لذة التغلب على الضعف فخرجت منتصرة وسعيدة بهذا العناد .

إنك كرّهتنى فى نفسى حيث أردت أن تحبنى . . وكيف أعيش بين أخوين كل منهما يريدنى لنفسه . . لا أستطيع أن أعيش مع جابر وقلب أحمد يخفق

بحبى . ولا أتصور أن أكون لأحمد وأمحو من حياتى ذكريات غالية وحب كبير قطعته مع جابر .

إننى مثلك أصابتى عاهة موجعة ، ولا أبالغ لو قلت إنها أنكى من عاهتك . . أنت مصاب فى ساقك ويراك الناس ويعالجونك . . وأنا مصابة فى قلبى ومشاعرى فلا يراهما أحد ولا يصلون لعلاجهما أو يعرفون لـهما دواء . . أرأيت يا أحمد أنك قتلتنى حيث أردت لى الحياة . . وأننى أشدّ منك مرضًا وأوجع ألمًا؟

وعاد أحمد يمسك يدها فى ضعف وهو يقول : سامحينى يا آمال ، فما أردت لك هذا أبدًا . . وما فكّرت فى شقائك وحيرتك . . سأخرج من حياتك يا آمال . . بل من حياتى كلـها إذا عجزتُ عن ذلك .

وجذبت يدها من يده ومن خلال دموعها الكثيرة التى انهمرت على خديها قالت : دعنى . . لا أريد أحدًا منكما . . سأعاند قلبى كما اعتدت أن أعانده وكما كنت دائمًا سعيدة بهذا العناد . . ولن يضير جابر بُعدى عنه . . فسيجد غيرى كثيرات لم يوقعهن الحظ العاثر فيما وقعتُ فيه .

وقال أحمد بسرعة : لا يا آمال . . إن جابرًا لا ذنب لـه . . وهو يحبك وأنت تحبينه . . يجب أن يستمر ما بينكما دون أن ينقطع ، وغدًا أو بعد غد يعود إليك حاملاً فى قلبه الشوق . . فلا ترديه خائبًا وتحطمى أحلامه على صخرة عنادك . . وكما كنتُ سببًا فى شقائك سأكون سببًا فى سعادتك . . سأداوى جراحى حتى تلتئم جراحك .

وابتعدت آمال فى خطوات سريعة متجهة نحو منزلـها ، وظلال الليل يلفها فى عباءته الحالكة . وفى اليوم التالى حضرت إلى عملـها يبدو على وجهها

التعب والذبول كأنها لم تنم منذ ليال طويلة . . فليلة الأمس مرت عليها فى هم ثقيل لم تعرف فيه للنوم طعمًا . . وأفكار متباينة تدور فى رأسها لا تستطيع منها خلاصًا . . وصورتا جابر وأحمد تطلان عليها فى كل خطوة تخطوها .

تسأل نفسها فى حيرة : هل تستطيع أن تمحو ما بينها وبين جابر لمجرد أن أحمد يحبها؟ وما الذنب الذى جناه حتى تعاقبه وتعاقب نفسها معه؟ لاشك أنها فتحت بابًا لأحمد عن غير قصد فكان وبالاً عليها وعليه . . وليس من الصواب أن يلام أحمد وتبتعد هى عن اللوم . . فلماذا توقع القصاص على جابر كأنها تكفر عن خطئها بحرمانه من حبها وبعدها عنه إذا استطاعت هذا البعد؟

وتسألـها منى فى إشفاق : ماذا بك يا آمال؟ أين بسمتك ومرحك؟ وما هذا الوجوم الذى يخيم عليك كأنك تحملينَ أعباء السنين .

فتجيبها آمال : لا شيء . . بعض التعب أحسّ به . . وغياب جابر الطويل يقلقنى .

فتقول منى : لا يا حبيبتى . . إن ما بك أكبر من ذلك . . فأنا أعرفك جيداً وأعرف ما يحزنك والصراع الذى تعيشين فيه . وإذا كان لى من كلمة حب أقولـها لك . . دعى الأمور تسير ولا تغيرى سيرتك مع جابر ، ونحىّ عن طريقك ما يعترضك من صخور مادُمت واثقة من حبك لجابر وحبه لك . . وهو لن يغيب عنك طويلاً . وضحكت قائلَة : سيكون معك اليوم أو فى الغد بإذن الله .